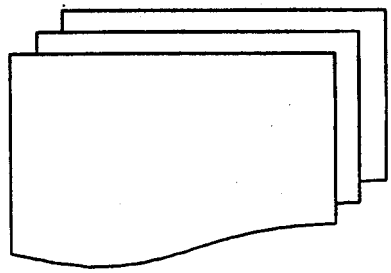

المذاهب الأدبية الغربية
المعاصرة والتصور الإسلامي لها

إعداد

د . صابر أحمد عبد الحافظ إبراهيم

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بأسيوط

الأستاذ المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

لجنة التحكيم

أ.د/ عبد الصبور ضيف محمد عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/علي محمد علي طلب عضو اللجنة العلمية المحكمة

مقدمة

من المؤكد أن الصياغات الأدبية – أياً كانت – تأتي انعكاساً للأفكار والتصورات والمعتقدات التي يؤمن بها أصحابها ومن خلالها يبثون رؤاهم وقيمهم وفقاً لما تقتضيه معتقداتهم وتصوراتهم وأفكارهم – وقد يختارون وعاء فنياً أو أدبياً سائداً يضع فيه الناس قضاياهم ومشكلاتهم وخواطرهم أو يخترعون أوعيتهم الخاصة بهم التي تميزهم عن سواهم .

ومن هنا كانت المذاهب الأدبية معياراً للتعبير عن حزمة الأفكار والتصورات والمعتقدات التي يؤمن بها أصحابها ويرون فيها التطبيق العلمي والحي لما يريدون التعبير عنه من قيم ومثل اتفق الناس معها أو اختلفوا .

والأديب المسلم في تعبير الأدبي يبحث عن تقديم أدب يعبر عن هويته وشخصيته وذاته الإسلامية بما تحمله من عقيدة وتصور وفكر ورؤية وهو يريد أن يطرح تعبيره من خلال إطار أدبي يتسق مع عطاء الإسلام ومرتكزاته ... فأي المذاهب الأدبية السائدة يصلح له منطلقاً وإطاراً ؟ وهل تحتم الضرورة أن يتعامل مع هذه المذاهب أي منها ؟

لا شك أن الحفاظ على التصور الإسلامي مسألة أساسية تسبق كل شيء فالأدب الإسلامي ابن التصور الإسلامي ، وحين يفارق التصور الإسلامي الأدب الإسلامي فإن التعبير الأدبي آنئذ يخرج من الدائرة الإسلامية إلى دائرة أخرى لا علاقة لها بالأدب الإسلامي ، أما الإطار الذي يحمل التصور الإسلامي أو ما نسميه الشكل الفني ، فهو المباح الذي ينبغي للأديب المسلم أن يستفيد به إذا قدر على حمل رسالته وتوصيل مراده .

وهذا يقودنا بالضرورة إلى قراءة سريعة أو تناول موجز لأبرز المذاهب الأدبية السائدة محاولة تفسيرها وفقاً للتصور الإسلامي ، لفرز الجوانب الإيجابية فيها والسلبية وفي النهاية فهو اجتهاد بشري يعتريه النقص في بعض جوانبه ، كما يحتمل الصواب في بعض جوانبه الأخرى .

ولا ريب أن الاستفادة بالاجتهادات الإنسانية مسألة مهمة يحثنا عليها الإسلام شريطة أن يكون التصور الإسلامي حاكماً لعملية التفاعل أو الانتخاب " يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

وأنثي وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " [1] فالتعارف كلمة شاملة لمعني التفاعل والاستفادة وتبادل المصالح ، والتقوى هي صميم التصور الإسلامي الذي يحكم عملية التعارف ومقتضياتها ... ثم إن الحكمة ضالة المؤمن .

ثمة أمر مستهجن ، وهو النقل عن الغير دون تأمل أو تدبر أو تمحيص ،وهو أمر ضرره واضح في الغالب لأنه قد يضيف إلينا عناصر سلبية لا تخدمنا ، وهو ما يشيع في ثقافتنا في العقود الأخيرة ... ومن المفارقات أن رواد الأدب والنقد في العالم العربي ، كانوا أكثر نضجاً في مطالع القرن العشرين ، حينما تعاملوا مع المذاهب الأدبية والمناهج النقدية من خلال الاستفادة بالعناصر الإيجابية التي تتفق وطبيعة لغتنا العربية وثقافتنا الحضارية والإنسانية ... وهو أمر يصب في الاتجاه الصحيح لعملية التفاعل والانتخاب .

الكلاسيكية

يرتبط نشوء الكلاسيكية بالعودة إلى الجذور في التراث اليوناني والروماني ، نتيجة النهضة العلمية والقومية التي سادت الفكر الأوربي منذ القرن السادس عشر الميلادي ورغبته في التحرر من أسر الكنسية والنظام الكهنوتي وكلمة الكلاسيكية مأخوذة على الأرجح من المصطلح الاتيني classic الذي يعني الأسطول ، وتطور الاستخدام ليعني الوحدة البحرية الأسطول ، ثم الوحدة المدرسية (الفصل) . ثم الأدب الجيد الذي يدرس في المدارس المذهب الأدبي الذي عرف بالكلاسيكية [2].

لكن القول إن الكلاسيكية بدأت نشأتها في إيطاليا ، ثم انتقلت إلى فرنسا وانجلترا وألمانيا، وتقوم الكلاسيكية على تمجيد العقل واحتذاء الأدبين الإغريقي واليوناني أو الروماني والاعتداد بالطبقية ونظام المجتمع ونفعية الأدب والصياغة الأسلوبية .

وتمجيد العقل يقوم على إعطاء الأولوية للمنطق والخضوع لأحكامه ، مما يجعل الخيال في الكلاسيكية يضعف فضلاً عن أهمال العاطفة الإنسانية بل وإزدرائها، مما يضع الأدب في حدود

---

(١) سورة الحجرات : ١٣

(٢) راجع محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، دار نهضة مصر للطبع والنشر : القاهرة ١٩٩٨ ص ٢٩٧

ضيقة جافة مع احتذاء أدب الإغريق وأدب الرومان يجعل منهما مثلاً ونموذجاً لكل أدب جيد عند الكلاسيكية ويضعف قدرة الابتكار ويقلل من مساحة الإلهام التي يعتمد عليها الأدباء المبدعون ... لقد جعلت الكلاسيكية الأدب أدب صنعه لا أدب طبع ، يخضع للمقاييس والموازين التي جاء بها أدب الإغريق وأدب الرومان ... ولا مجال عندهم للعبقرية الأدبية ولا الوحي الشعري والإلهام الإبداع.

والاعتداد بالطبقية جعل الكلاسيكية تكرس أدب الأرستقراطية ، وتزدري أدب العامة أو البسطاء من الناس فهذه الطبقية تمثل الأغلبية من المجتمع لا يصح أن يتوجه إليها الأدب ولكن الأدب يتوجه إلى طبقة الصفوة المتميزة أى الارستقراطية التي تحتفي بالتقاليد ، والعادات أو ما يعرف بنظام المجتمع وهذا النظام صار بديلاً عن الدين والقيم الخلقية الدينية .

ونفعية الأدب تقوم على تسخير الأدب لتحقيق غايات اجتماعية من خلال تشريح النفس البشرية ، والطبائع الإنسانية ، والابتعاد عن قضايا السياسة والدين وتقديم الواجب على العاطفة في كل الأحوال .

ولا شك أن الكلاسيكية تحتفي بالصياغة والأساليب والزخرفة فأدبها هو أدب المجتمع المخملي الناعم الذي يقدس التقاليد والمراسيم الاجتماعية أو ما سبقت الإشارة إليه باسم نظام المجتمع الزائري الأدب الكلاسيكي في مجمله أدب أسلوب وصياغة بامتياز . [1]

وقد راج الشعر المسرحي وضعف الشعر الغنائي في ظل الكلاسيكية ، مع انحاء ذاتيته تحت سلطان المجتمع الارستقراطي وهو ما كان له أثره في دعم القيم والتقاليد السائدة[2] ومن أبرز أعلام الأدب الكلاسيكي في فرنسا على سبيل المثال : راسين وكورني ومولبير ، ولافولتنين ، وبوالو ، صاحب (فن الشعر).

---

(١) عبد الباسط بدر– مذاهب الأدب الغربي – رؤية إسلامية – شركة الشعاع للنشر ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م ص ٣٣ – ٣٥

(٢) محمد غنيمي هلال – الأدب المقارن ص ٢٩٧ – ٣٠٠

وفي انجلترا يعد سدني وبن جونسون من أشهر نقاد الكلاسيكية الإنجليزية .

ويلاحظ أن الكلاسيكية أخذت تتراجع مع نهايات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لصالح مذهب جديد هو : الرومانتيكية وبدأ ذلك في انجلترا ثم ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا .

الكلاسيكية في التصور الإسلامي

ولكن من خلال فهم الأسس التي قامت عليها الكلاسيكية أن نضعها أمام المعايير الإسلامية بحيث يمكن الاستفادة منها ، وما يتوافق معها وخاصة ما يتعلق بالرؤية الفكرية ويمكن أن نوجزها فيما يلي :-

١ – من المؤكد أن محاكاة الكلاسيكيين للأدب الأغريقي والأدب الروماني ، جعلهم يتأثرون بما فيهما من وثنية ، ونظرة غير ناضجة إلى القدر تجعله ظالماً ويكيد للإنسان ويؤذيه وهذا ما يخالف التصور الإسلامي الذي يرى في القدر تعبيراً عن الإرادة الإلهية وابتلاء للإنسان واختياراً له ، وليس فيه ظلم أو كيد أو إيذاء .[١]

٢- إذاً كانت الكلاسيكية ترى أن الأدب يجب أن يعبر عن الطبقة العليا (الإرستقراطية) ويعدها انطلاقاً من رؤية فكرية تهمل الطبقات الأخرى فإن الإسلام لا يفرق بين الناس على أساس الطبقات ولا يفضل طبقة على أخرى ومن ثم فإن الأديب المسلم يجب ان يشمل أدبه كل الطبقات ويتوجه إلى جميع الناس يعالج مشكلاتهم وقضاياهم برؤية اسلامية واضحة. [٢]

٣- تعتمد الكلاسيكية الجانب الخلقي وفقاً لمبدأ نظام المجتمع وهذا الجانب يبدو مقبولاً للرؤية الإسلامية ولكن نظام المجتمع يختلف من مرحلة إلى أخري ومن عصر إلى أخر فما يراه المجتمع اليوم مقبولاً قد يراه غداً مرفوضاً وهكذا فالميزان الخلقي لدى الكلاسيكيين يبدوغير ثابت نسبياً ، أما الأخلاق في الإسلام فهي ثابتة وأسسها لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، وأيضاً فإن الكلاسيكية تركز على النواحي المادية في العلاقات الإنسانية وقد تهتم ببعض العواطف والمشاعر

---

(١) أنظر : عبد الباسط بدر – مذاهب الأدب الغربي ص ٣٨ وما بعدها

(٢) السابق ص – ٤

ولكنها تهمل الجوانب الروحية وما فيها من تألق وصفاء ، أما الأدب الإسلامي فهو يقيم توازناً رائعاً بين المادة والروح ويعطي لكل حقه .[1]

٤ – ينصرف الأدب الكلاسيكي بصفة عامة إلى معالجة النفس البشرية وتحليلها وتصوير العادات الاجتماعية ويبتعد عن القضايا السياسية والاجتماعية الفكرية ونحوها ولكن الأدب الإسلامي يعالج كل ما يعيشه الانسان من مشكلات وقضايا وعواطف ومشاعر وما يطمح إليه من أمال وأشواق.[2]

٥– إن الصرامة الكلاسيكية في اتخاذ القوالب والأشكال الأدبية والاعتماد الاناقة اللفظية والأسلوبية قد تكون مقبولة بالنسبة للمجتمع الارستقراطي زمانه ولكن الدنيا تتغير والأمزجة تتبدل وهذا يعني أن التجديد سنة الله في خلقه ، والتجديد لا يعني الترخص في استعمال اللغة أو الهبوط بمستواها بل المطلوب هو الارتقاء الدائم في الصياغة وفي القوالب والأشكال بما يضيف وليس بما يختصر .

الرومانتيكية

ويسميها البعض خطأً الرومانسية ولكن محمد غنيمي هلال في كتابه الرومانتيكية يناقش هذه التسمية ويرى أن الصواب هو الرومانتيكية كما ترجمها البعض من العرب بـ "الابتداعية" في مقابل الاتباعية أو الكلاسيكية .

وقد قامت الرومانتيكية على أنقاض الكلاسيكية نتيجة لظروف متعددة ترجع إلى قصور الكلاسيكية نفسها عن تلبية طموحات الأدباء في التعبير عن النفس وأشواقها وأحزانها وإلى أسباب طرأت على بعض المجتمعات الأوروبية نتيجة الثورات والحروب والهزائم التي نزلت بها .

---

(١) أنظر : عبدالرحمن رأفت الباشا ، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد – جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية : الرياض ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م ص ٣١

(٢) عبد الرحمن رأفت الباشا ، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد – جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية : الرياض ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م ، ص ٣٢

ويمكن أن نوجز عوامل قيام الرومانتيكية فيما يلي :-

١ – ظهور أفكار ونظريات أطلقها عدد من الكتاب والمفكرين الأوروبيين في القرن الثامن عشر مثل كانت وجون ستبورات ميل زعزعت أركان الكلاسيكية حيث وجهت هذه الأفكار وتلك النظريات الفكر الأدبي النقدي نحو التعبيرية والتأكيد على الذات الإنسانية .

٢ – التمرد على الإقطاع والكنيسة والملكية ، بعد طول هيمنة استمرت منذ القرون الوسطي حتي عصر النهضة وقد أدي هذا التمرد بدوره إلى التململ والرفض لقيود الكلاسيكية والترحيب بالرومانتيكية .

٣ – كان اكتشاف شكسبير ومسرحه المهم من أبرز العوامل التي أثرت على الأدباء في انجلترا وألمانيا وفرنسا وجعلتهم يرحبون بالرومانتيكية خاصة وأن شكسبير في مسرحه لم يلتزم الوحدات الثلاث (الزمان، والمكان، والحدث) كما لم يلتزم مبدأ الفصل بين الأنواع التي كان يتقيد بها الإغريق والكلاسيكيون الجدد فضلاً عما في أدبه من قدرة على التحليل ووصف العواطف الإنسانية والأخلاق البشرية

٤ – كما كانت رحلات الأوربيين إلى المشرق (مصر ، بلاد العرب ، الهند ، الصين) عنصراً مهماً في إطلاق خيالهم نحو الحلم بحياة أفضل من حياتهم المادية فالشرق كان ولم يزل مستودع الحياة الروحية بما فيها من صفاء ونقاء وسحر وكان لترجمة (ألف ليلة وليلة) بما فيها خيال أثر كبير في دعم تيار التحرر والخروج من عالم القيود الذي حكم الأوربيين طويلاً .

٥ – مثلت هزيمة (نابليون بونابرت) في معركة واترلو عام ١٨١٥ م ، عاملاً مهماً في إثراء الاتجاه الرومانتيكي ، وطبعه بطابع الحزن واليأس والتشاؤم ، فقد ظن الفرنسيون أنهم سينتصرون ، ويقودون العالم نحو الحرية ويبنون إمبراطورية واسعة الأرجاء ولكنهم فوجئوا بالهزيمة النكراء فأصيبوا بالحزن والإحباط .[1]

---

(١) انظر : عبد المنعم تليمة ، مقدمة في نظرية الأدب الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٠ م ، ص ٢٦٢ وما بعدها ، محمد غنيمي هلال ، الرومانتكية ، ص ٤٠ ومحمد مندور ، الأدب ومذاهبه ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت ص ٦٥ – ٦٧

لقد أكدت الرومانتيكية بصفة عامة على فلسفة الإعلاء من شأن الذاتية والفردية وتقديم الفرد على المجتمع من زاوية الفكر الاجتماعي وتقديم العاطفة على العقل والقلب على الدماغ والشعور على المنطق والوجدان على الاتزان والموهبة على الصنعة ، والإلهام على المهارة من زاوية الفكر النفسي .

أهم معالم الرومانتيكية

١ – الدين : فالرومانتيكيون أكثر ميلاً إلى الدين ، وهو ما ينسجم مع طبيعتهم العاطفية المشدودة إلى عالم الروح وغموضه وأسراره ، ولعل ذلك نتيجة للحياة المادية في أوربا، وليس معني ذلك أن إنتاجهم الأدبي يحتوي على الأفكار الدينية أو يدعوا إليها بطريقة وعظية، بل كان تعبيراً عن حاجة الإنسان إلى العقيدة الروحية التي تنبع من القلب ولا تلتزم حرفياً بإتباع دين من الأديان السماوية . (١)

٢ – الطبيعة : فاتجاه الرومانتيكيين إلى الطبيعة يصب في دائرة الثورة على القيود والتقاليد والظلم كما يمثل رغبة في الحرية وميلاً إلى الفطرة والاتجاه إلى الطبيعة قد يكون حلاً وابتعاداً عن المدن والزحام والمشكلات الاجتماعية والحروب ولعل هذا ما يفسر حب الرومانتيكين للوحدة والعزلة .

٣ – الميل إلى الحزن والتشاؤم : وهو أمر قد تصنعه الوحدة والعزلة ولهذا تناول الرومانتيكون من مناظر الطبيعة ما يتفق مع أحاسيسهم ومشاعرهم .

القمر الشاحب ، الليالي المظلمة ، الأمواج الهائجة ، أوراق الشجر الساقطة ، الغيوم والضباب في السماء ، تساقط الثلوج ، الذبول ، الفناء ، مشاهد الخريف .

٤ – الاعتداد بالفرد : وقد نشأ نتيجة الفلسفة العاطفية والتعبير عن مطالب الطبقة البرجوازية واستلزم قيام نوع من التعاون للحد من حقوق الطبقة الارستقراطية تمهيداً للقضاء عليها ، ومن ثم كانت القصص والأشعار الغنائية والمسرحيات ذات طابع شعبي ، وكانت شخصياتها من سواد الشعب .

---

(١) محمد غنيمي هلال ،الرومانتيكية ، ص ١٥٢

٥ – الاهتمام بالتاريخ : فمن خلال إحياء مآثر الأدباء والأجداد ووصف اللون المحلي للعصر أوالبلد الذي تجري فيه حوادث العمل الفني ومن ثم اخترع الرومانتيكون قالب القصة التاريخية ، وخلطوا المأساة بالملهاة فيما يسمي الدراما الرومانتيكية [١]

الرومانتيكية في التصور الإسلامي

لا شك أن الرومانتيكية تحمل عناصر إيجابية وخاصة في مفارقتها للوثنية وميلها إلى الدين وعالم الروح والاعتداد بقيمة الفرد وإحياء الأمجاد القديمة ولكن هناك بعض الفروق التي تستوجب وقفة ولو موجزة – لبيان طبيعة التصور الإسلامي إزاء الرومانتيكية .

١ – سبقت الإشارة إلى الميل إلى الدين عند الرومانتيكين لم يترجم إلى أفكار حقيقية ، بل كان تعبيراً عن حاجة روحية تنبع من القلب ، وهذا يعني أن الالتزام الديني بالمعني العقدي لا مكان له في الرومانتيكية ، وهذا ما يتناقض مع التصور الاسلامي الذي يفترض أن يكون الأديب المسلم ملتزماً بإسلامه عقيدة وشريعة يعبر عنهما من خلال مفردات الدين تعبيراً فنياً لا يتناقض معها ولا يهملها أو يزري بها .

وإذا عرفنا أن بعض الرومانتيكين في الغرب قد دعوا صراحة إلى نبز الوثنية الإغريقية والالتفات نحو المسيحية والتعبير عن قيمها مثل "شاتوبريان" في كتابه "العبقرية المسيحية" الذي دعا إلى صبغ الأدب بصبغة مسيحية ، فقد استجاب له كثير من أنصار الرومانتيكية فوجهوا أدبهم وجهة مسيحية .[٢]

إن الأدب الاسلامي يرفض وثنية الإغريق ولا يتفق مع دعوة "شاتوبريان" المسيحية وخاصة في صورتها الأوربية المشوشة .

٢ – إذا كان الاتجاه نحو الحرية والانطلاق وتكسير القيود أمراً مطلوباً لتحرير المجتمعات من الظلم والطغيان والقهر فإن التصور الاسلامي يرفض أن يتحول التحرر إلى انحلال والانطلاق إلى فوضي أنه تصور يقوم على التوازن بين حقوق الأفراد وحقوق المجتمع .

---

(١) محمد غنيمي هلال – الأدب المقارن – ص ٣٠٠ – ٣٠٣

(٢) عبد الرحمن رأفت الباشا ، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص ٣٩

ومن ناحية أخري فإن الحرية في الاطار الرومانتيكي تصبح مناقضة لهذا التوازن وخاصة إذا دعت إلى ابتهاب اللذات وانهيار الأخلاق والأديب المسلم لابد أن يكون مالكاً للإنضباط الخلقي مترفعاً عن الدنايا داعياً إلى السمو الروحي والرقي الخلقي . يقول الرسول صلي الله عليه وسلم : "أكمل المسلمين إيماناً أحسنهم خلقاً " وكان يسأل ربه مكارم الأخلاق فيقول: اللهم أني أسالك الهدي والتقي والعفاف [1]

٣ - أيضاً فإن الاتجاه إلى العزلة والوحدة والحزن والتشاؤم في الرومانتيكية تمثل موقفاً سلبياً من الحياة والكون أو قل تمثل هروباً غير مقبول أمام التزامات الواقع والمسلم بصفة عامة مطالب باقتحام الحياة وتجاوز العقبات بقدر طاقته والمقاومة للمصاعب والمتاعب ما أمكنه ذلك دون أن يستسلم لليأس أو الحزن أو التشاؤم: لم يعترف الاسلام بإنسانية الإنسان وما يعتريه من حالات ضعف وأسى ولكنه رفض الاستسلام لهذه الحالة إلى مالا نهاية كما يري الرومانتيكيون.

وقد كان الرسول صلي الله عليه سلم يواجه ظروف صعبة تملأ نفسه بالحزن والألم خاصة من جانب المشركين ، وكان الوحي يشجعه على الصبر والمقاومة والمواجهة ...
فخاطبه قائلاً : "ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر"[2] أو "ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً"[3] أو "ومن كفر فلا يحزنك كفره" [4]أو" فلا يحزنك قولهم نعلم ما يسرون وما يعلنون"[5] أو "أفمن زين له سوء عمله حسناً فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ".[6]

---

(١) عبد الرحمن رأفت الباشا ، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص ٤١
(٢) سورة آل عمران : ١٧٦
(٣) سورة يونس : ٦٥
(٤) سورة لقمان : ٢٣
(٥) سورة يس : ٧٦
(٦) سورة فاطر : ٨

إن الإسلام لا يرفض الحزن العارض ولا ينكره ولا يرفض التعبير عنه ولكنه يرفض الاستغراق فيه ويرفض اتخاذه وسيلة أو سلوكاً في الحياة . (١)

٤ – إن الإعلاء من شأن العاطفة في الرومانتيكية قد يقلل من أهمية العقل فضلاً عن التقليل من أهمية الالتزام الخلقي وكما سبقت الإشارة فإن التصور الإسلامي يقوم على فكرة التوازن بين العاطفة والعقل، العاطفة مهمة للانطلاق والتحرر والتمرد على الأوضاع الجائرة والصور الشائهة ، بيد أن ترك المجال للعاطفة سواء على مستوي الفرد أو صعيد الجماعة قد يمهد للتطرف وتجاوز الحدود المعقولة والمقبولة وفقاً للتصور الإسلامي وهو أمر غير مقبول ، لأنه يعرض الفرد للانهيار أو الهلاك ويضع المجتمع في مهب الريح التي تمزقه وتفتته، وتهبط به إلى دركات التخلف والانحطاط ومن ثم فإن الالتزام بالضوابط العقلية والخلقية هو صمام الأمان لحركة القلب والعاطفة معاً .

الواقعية

يبدو المذهب الواقعي نتاجاً للمذهبين الكلاسيكي والرومانتيكي وكونه نتاجاً لا يعني أنه امتداد لهما أو طور من أطوارها ولكنه رد فعل على ولاء المذهب الكلاسيكي طبقة الارستقراطية وتمسكه بالتقاليد الاجتماعية وعلى انحسار الرومانتيكية في الإطار الفردي الذاتي الذي يغفل قضايا المجتمع والطبقات الكادحة ، ومن ثم فإن المذهب الواقعي دليل على ولاءه للمجتمع وخاصة طبقاته الدنيا وتشخيص لأمراضه وهمومه ومحاولة معالجتها وفقاً لبعض اتجاهاته ..

إن الواقعية في الأدب تقوم على علاقة مفترضة بين الأديب والمجتمع أو الأديب الواقع فالأديب نتاج للمجتمع وأدبه مرآة عاكسة للواقع .

وهناك ثلاثة أسس يرتكز عليها المذهب الواقعي .

١ – الأديب عضو في المجتمع وله مكانته التي تستشرف ما يجري فيه وما يأمله فيه .

٢ – الحياة حقيقة اجتماعية والأديب لا يكتب لمجرد التسلية ولكنه يكتب إلى جمهوريؤثر فيه ويتأثر به .

---

(١) عبدا لباسط بدر : مذاهب الأدب الغربي ، ص ٤٧ – ٤٩

٣ – الأديب وفقاً لهذا المذهب له وظيفة نفعية اجتماعية لأنه يرتبط في نشأته بمفاهيم وتقاليد اجتماعية وتعد "مدام دي ستايل" من أوائل الذين أسهموا في بلورة هذا الاتجاه في كتابها "الأدب في علاقاته بالنظم الاجتماعية" الذي صدر عام ١٨٠٠ م ووضحت فيه مدي تأثير الدين والأساطير والبيئة والعادات والقوانين وأساليب الحكم وغيرها على الأدب من جهة ، وتأثير الأدب على هذا كله من ناحية أخري . (١)

وقد نشأت الواقعية استجابة لبعض الفلسفات التي ازدهرت في أوربا في القرن التاسع عشر وخاصة الفلسفة الوضعية التي كان من طلائعها "أوجست كونت " وتدعو إلى رفض الغيب والإيمان بالمحسوس ودراسته وتناول ظواهره لمعرفة قوانينها وتقرر أن التطور العقلي هو السبب الرئيسي للتطور الاجتماعي وأن المجتمع البشري تطور من اللاهوتية إلي الميتافيزيقية حتي وصل إلى المرحلة العلمية التي يكتمل فيها تطور الإنسانية ويصير رجل العلم الوضعي هو القوة الروحية المهيمنةعلى المجتمع حيث ينتهي دور الدين تماماً .(٢)

وعلى المنوال نفسه تقريباً سادت الفلسفة التجريبية " فرنسيس بيكون" ثم "لوك" و"باركلى" و"هيوم" و"جون ستيورات مل" والفلسفة الواقعية المادية الجدلية "ماركس" و"أنجلز" وإعلاء المادة هو شأن الفلسفتين مع نبز الغيب وتغيب الدين . (٣)

وقد انتشرت الواقعية في فرنسا وألمانيا وانجلترا وبقية أوربا وصارت مذهباً رسمياً للأدب بعد انتصار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي الذي كان ودول أوربا الشرقية وغيرها من الدول الشيوعية في أسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية .

ونظراً لإيمان كثير من الأدباء بالواقعية فقد تعددت أشكالها وتنوعت اتجاهاتها حتي تجاوزت ثلاثين اتجاهاً أوشكلاً وأشهرها الواقعية الطبيعية الإنتقادية والواقعية الاشتراكية والواقعية السحرية

---

(١) أنظر : محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ص ٤٣ ، إبراهيم عوض ، مناهج النقد الأدبي الحديث ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م ، ص ١٢٧ وما بعدها

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة : عبدالرحمن بدوي مكتبة الأنجلوا القاهرة ١٩٦٤ م ، ص ٣٦٦ .

(٣) السابق ، ص ١١١ ، ٢٨٦

واستنبط الأدباء الإسلاميون واقعية مؤمنة تختلف عن الواقعيات الأخري أطلق عليها الواقعية الإسلامية .

الواقعية النقدية

ويطلق عليها أحياناً الواقعية الطبيعية وهناك من يفرق بين النقدية والطبيعية حيث تبدو الأخيرة أكثر التصاقاً بالنظريات العلمية التجريبية وتسعي إلى محاولة تطبيقها على السلوك الإنساني من خلال الأعمال الأدبية .

ويفضل الناقد المجري "جورج لوكاتش" الواقعية النقدية على غيرها من الواقعيات وخاصة الواقعية الاشتراكية .

تركز الواقعية النقدية على الجوانب السلبية في المجتمع والجانب الشرير في الإنسان على وجه الخصوص وتتخذ من الرواية مجالها الرئيسي لتعكس التناقضات الاجتماعية بين الطبقات الدنيا والطبقات العليا فضلاً عن جوانب القبح في المجتمع التي يصعب حلها ولذا تتسم الواقعية النقدية بالتشاؤم واليأس وكأن الصراع الطبقي قدر لا مفر منه سيؤدي لا محالة إلى الخراب والدمار بسبب استغلال الإنسان القوي لأخيه الإنسان الضعيف . (١)

ويعد من أبرز كتاب الواقعية النقدية أو الطبيعية الكاتب الفرنسي "بلزاك" والانجليزي "تشارلز ديكنز" والروسيان "تولستوي" و"بستويفسكي" والنرويجي "ابسن" والأمريكي "إرنست همنجواي" ويعد الفرنسي "إميل زولا" من أبرز كتاب الرواية الطبيعية التي تعتمد على النظريات العلمية التجريبية وقد طبقها في روايته الشهيرة "الحيوان البشري" ومثله الكاتب الفرنسي " فلوبير" صاحب الرواية الشهيرة "مدام بوفاري" .

الواقعية الاشتراكية :

وتتفق الواقعية الاشتراكية مع الواقعية النقدية في اعتماد الصراع الطبقي بين الأغنياء والفقراء مع فارق أساسي بينهما وهو أن الواقعية الاشتراكية تحل التفاؤل والأمل مكان التشاؤم واليأس عند الواقعين النقديين فالتفاؤل والأمل ينبعان عند الاشتراكيين من الإيمان بانهيار المجتمع

(١) أنظر : حلمي القاعود : النقد الأدبي الحديث ، ص ٢٠٨ وما بعدها

الرأسمالي المشوه والحل الثوري يقوم على العنف والدم نتيجة الصراع بين الكادحين والرأسماليين وهذا الحل يقود إلى النصر الذي يكلل جبين الطبقة العاملة وهو نصر حتمي ينشأ من الحتمية التاريخية . (١)

ويبدو أن سقوط الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخري الدائرة في فلكه عام ١٩٩٠ م قد جعل الواقعية الاشتراكية تتراجع إلى حد التلاشي ولم يبق من انتاجها الأدبي إلا النزر اليسير وخاصة من كتابات أولئك الأدباء الأوائل الذين كانوا يكتبون بدوافع ذاتية أكثر منها دوافع حكومية أو حزبية كما نري في أثار "مكسيم جورجي" و "شولوخوف" و"ناظم حكمت" و "بابلونيروورا" وغيرهم .

تبقي الإشارة إلي فارق مهم بين الواقعية النقدية والواقعية الإشتراكية يتمثل في اهتمام الأولى بالمعايير الفنية والحرص عليها أما الأخرى فقد أهملت هذه المعايير وخاصة اللغة لحساب المضمون الذي غلبت عليه التقريرية والخطابية والمباشرة .

الواقعية في التصور الإسلامي :-

كما رأينا فإن الواقعية باتجاهاتها المتعددة تنطلق من تصور مادي للكون والحياة والإنسان ولا تؤمن بالروح ولا الغيب ولا الوحي ولهذا فإنها تبدو في تناقض كلي مع الإسلام وتصوراته ويمكن إجمال الرؤية الإسلامية للواقعية في النقاط التالية .

١ – لا شك أن الاعتماد على الصراع الطبقي والنظريات العلمية التجريبية في المذهب الواقعي قد حوله إلى ميدان اختبار لأفكار اجتماعية وعلمية لم تثبت فاعليتها بعد عشرات السنين فالصراع الطبقي بين الفقراء والأغنياء أو بين الكادحين والرأسماليين لم يسفر عن نجاح ملحوظ يحقق للطبقة الكادحة مكاسب أو امتيازات ملحوظة حيث حلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي مكان الطبقة الرأسمالية من الاحتفاظ بالنفوذ والسلطة والثروة والسطوة ولم تستفد الطبقة الفقيرة إلا مزيداً من البؤس والضياع والفقر فضلاً عن غياب الحرية والكرامة الإنسانية وقد تكشفت مأساة الصراع الطبقي عن ذبح الملايين في الاتحاد السوفيتي

---

(١) أنظر : حلمي القاعود : النقد الأدبي الحديث ، ص ٢٠٩

على سبيل المثال وبعد سبعين عاماً سقط الاتحاد السوفيتي نفسه وانتهى مع النظرية والدول المساندة له جميعاً وقد جعلت النظريات العلمية التجريبية من الأدب مجالاً لاختيار نظريات متغيرة ، مما جعل التعبير الأدبي عنها يمثل حالة من التعسف والافتعال سقطت بسقوط هذه النظريات أو تغيرها .

٢ – إن الإسلام لا يؤمن بالعنف الذي يؤججه الصراع الطبقي ولا يسوغ الدم الذي يهرق دماء الأغنياء لحساب الفقراء ، ولكنه وضع أسساً قديمة وعادلة في المجتمع الإسلامي يلتزم بها جميع المسلمين وتجعلهم يعيشون في تضامن وتكافل وإخاء .

قال تعالي : "وفي أموالهم حق للسائل والمحروم" [١] وقال تعالي : "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة"[٢] وهناك آيات كثيرة على امتداد سور القرآن الكريم تؤكد على ضرورة التزام المجتمع الإسلامي نحو أبنائه الفقراء والضعفاء والمحتاجين .

وفي العديد من الأحاديث الشريفة ما يحمل المعني نفسه منها قول الرسول صلي الله عليه وسلم " والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع .... " ودعا الإسلام المجتمع الإسلامي إلى الاهتمام بأمر أفراده " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم " وحض الشعراء المسلمين على الدفاع عن المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة ووجه الخطابة إلى معالجة قضايا الحياة أولاً بأول وعلى هذا النحو سار الخلفاء الراشدون من بعده . [٣]

تري الواقعية بصفة عامة والواقعية الإشتراكية خاصة أن الإنسان مجرد جسد مادي يحتاج إلى إشباع بيولوجي فقط ولهذا تدور الواقعية حول توفير حاجاته المادية فحسب دون أن تعبأ بحاجاته الروحية والوجدانية .

والتصور الإسلامي يري أن الإنسان جسد وروح ، مادة وعاطفة ، وأنه وبدون إشباع حاجاته المادية والروحية جميعاً ، حرصاً على التوازن في الفطرة البشرية وفي هذا السياق فإن رفض الواقعية للغيب والوحي والدين يخالف العقيدة الإسلامية مخالفة صريحة ويهدم بنيانها القائم على

---

(١) سورة الذاريات : ١٩

(٢) سورة البقرة : ٨٣

(٣) عبدالباسط بدر ، مذاهب الأدب الغربي ص٥٩

الإيمان والتوحيد والبعث ، قال الله تعالى : "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " [1] وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد على ضرورة الإيمان بالتوحيد والبعث وما يتعلق بهما مما يعني أن الدين والروح والغيب أساس في العقيدة الإسلامية التي تحرص على بناء الإنسان روحياً ومادياً .

يلاحظ أن الواقعية في تركيزها على جانب الشر والقبح في الانسان بحجة أنها تحرض على تجنبها فإنها في حقيقة الأمر تشوهه وتظهره على غير حقيقته التي فطره الله عليها الله سبحانه خلق الإنسان وفيه استعداد للخير والشر معاً فإذا غلبت دوافع الخير صار خيراً وإذا غلبت دوافع الشر صار شريراً : قال تعالى " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" .[2]

هذا يعني أن النفس البشرية تحمل البذرتين الفجور والتقوى أو الخير والشر والإنسان يستطيع أن يزكي نفسه ويطهرها فيكون من أهل الخير أو يتركها على هواها يستجيب لرغباتها المنحرفة فيضيع ويكون من أهل الشر .

والأدب الإسلامي هو الذي يعالج النموذجين الخيِّر والشرير في آن واحد وينتصر بدون افتعال وإنما نتيجة مقدمات وأسباب ومسوغات منطقية .

ولا شك أن الخير يرتبط بالجمال والحق وهو ما يجعل حياة المسلم ذات قيمة في واقعها وذات غاية استعداداً للآخرة .

٥ – من المؤكد أن الواقعية حصرت الأديب في دائرة ضيقة وسلبت حريته في الرؤية والتحليق وقد جعلت الواقعية الاشتراكية من الأديب مجرد ببغاء يردد ما يقوله الساسة الاشتراكيون أو الشيوعيين وقادة الحزب الشيوعي ويدعو إلى ما يريدون في نبرة خطابية تقريرية مباشرة وهو ما يفقده القدرة على الإبداع والتميز .

---

(١) سورة الإخلاص : ١ – ٤

(٢) سورة الشمس : ٧ – ١٠

بيد أن الأديب المسلم يملك مساحة عريضة يتحرك فيها بحرية تامة ملتزماً من داخله بقواعد الإسلام وتصوراته وكلها تصب في ترقية الوجدان والعاطفة وتزكي القلب والوعي وتضيف للإنسان ولا تنتقص منه .

ولعل الفارق بين الواقعية في صورتها المادية والواقعية الإسلامية التي نادي بها الأدباء الإسلاميون تكمن في تلك الصورة المتفائلة بالحياة القائمة على الثقة في نصرة الله لأوليائه، والمؤمنة بضرورة المقاومة لعوامل الإنهيار والسلبية والانزواء، وهي أساس الواقعية الإسلامية التي تشتبك مع الواقع بتفصيلاته الصغيرة والكبيرة على السواء ولا تنحاز إلى طبقة دون أخري ولكنها تنحاز إلى الإنسان في صورته المضيئة الخيرة المثمرة وتعالجه في صورته القاتمة الشريرة المجدبة سعياً للأخذ بيده وإنقاذه من الشر والقبح والدمار[1]

لقد أخفقت الواقعية في توجهها المادي الصرف إخفاقاً ذريعاً وخاصة بعد سقوط راعيها الأول (الاتحاد السوفيتي) ودعوة الشعوب التي فرضت عليها الشيوعية والإلحاد إلى دينها وعقيدتها مرة أخري وتغير نسق الإبداع الأدبي بين أدبائها الذي صار ينبع من ذواتهم ورؤاهم التي لا يحكمها حزب ولا يضعها زعماء شيوعيون .

البرناسية

تعد " البرناسية " مع "الواقعية" من أهم المذاهب الأدبية التي قامت على أنقاض "الرومانتيكية" وتسمي "البرناسية" أحياناً بمذهب "الفن للفن" .

وينسب المذهب "البرناسي" إلى جبل " بارناس" في بلاد الأغريق موطن الآله "أبوللو" آلهة الفنون في أساطير اليونان القديمة وهو المقام الرمزي للشعراء وتعتمد البرناسية على الفلسفة المثالية الجمالية من ناحية والفلسفة العلمية التجريبية من ناحية أخري الأولي تقوم على فلسفة "كانت" (١٧٢٤ – ١٨٠٤ م) التي تعني التمييز بين المنفعة والجمال في ذاته وتري أن العمل الفني ليتحقق جماله المحض

(١) انظر : مقدمة كتاب الواقعية الاسلامية في روايات نجيب الكيلاني حلمي قاعود ، ط ٢ مكتبة العبيكان ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م ، الرياض وأحمد بسام ساعي الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد ، دار المنار للنشر ، جدة السعودية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٥ م

في شكله دون نظر إلى موضوعه أو مضمونه ويعد الفيلسوف الألماني "هيجل" (١٧٧٠ – ١٨٣١م) امتداداً لفلسفة "كانت" .

وبصفة عام فإن الفلسفة المثالية الجمالية أثرت في دعوة البرناسية حيث دعوا إلى استقلاق الشعر عن كل غاية اجتماعية أو خلقية ورأوا أن العصر الذهبي للشعر هو عصر الإغريق الذي لن يصل إليه الشعر أبداً .(١)

والأخري تقوم على فلسفة "أوجست كونت" (١٧٩٨ – ١٨٧٣) الوضعية وفلسفة "جون استيورات ميل" (١٧٠٦ – ١٨٧٣ م) التجريبية اللتان تدعوان إلى خروج الإنسان من حدود ذاته طلباً للمعرفة الصحيحة وأن المعلم هو الذي يقود إلى هذه المعرفة لا القلب كما كان يري الرومانتيكيون ويعد "تين" أعظم ناقد أدبي يمثل الفلسفة الوضعية التجريبية وقد تأثر به الواقعيون كما تأثر به البرناسيون ويري "تين" أن الفن يجب أن يستقل عن كل غاية نفعية أو خلقية وهو– أي الفن – يشارك العلم في هذه الخاصية فالفن والعلم مستقلان ويجب ألا يكون للخلق أي سلطان عليهما .(٢)

هناك رائدان مشهوران في مجال المذهب البرناسي هما "تيوفيل جوتيه" (١٨١١ – ١٨٧٢م) الذي يعتقد استقلاق الفن وهو صاحب مصطلح الفن للفن ويراه غاية لا وسيلة كما يري الفنان الذي يهدف إلى ما سوي الجمال ليس بفنان وأن كل شيء جميل هو فكرة جميلة انطلاقاً من أنه لا يفرق بين الفكرة والشكل أما الرائد الأخر فهو "الكونت دي ليل" الذي يري أن عالم الجمال هو مجال الفن الوحيد وهو غاية في ذاته لا فمائي ولا يمكن أن يكون له صلة بأي إدراك أخر دونه وأنه ليس خادماً للحق لأن الجمال يحتوي على الحقيقة الإلهية والإنسانية فهو القمة المشتركة التي تلتقي عندها طرق الفكر وما عداها يدور في دوامة من المظاهر وعلى الشاعر أن يحقق الجمال بقدر ما تتيحه له رؤاه النفسية في تراكيب فنية الصنع تنم عن عمق خبرة . (٣)

---

(١) محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، ص ٣٦٩ – ٣٧١

(٢) السابق ٣٧٢ – ٣٧٣

(٣) محمد غنيمي – الأدب المقارن ص ٣٧١

وتظهر لدي "الكونت دي ليل" صدى الفلسفة التجريبية فهو يقول في استقباله في الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٨٧ م إذا كانت الطبيعة تخضع لقوانين لا تتخلف لا تزال تتحكم فيها فإن للفكر الإنساني كذلك قوانينه التي تنظمه وتوجهه وتاريخ الشعر يتجاوب مع تاريخ العهود الإجتماعية والأحداث السياسية والأفكار الدينية ويدعو إلى وجوب إفادة الشعر من بحوث العلم المعاصر في موضوعاته التاريخية والإنسانية قائلاً : "إن الفن والعلم اللذين طالما مزقت بينهما جهود الفكر المتباعد يجب الآن أن يأتلف ائتلافاً تاماً أو يتوحد كلاهما بالآخر". (١)

لقد انتشرت أراء "جوتييه" و "دي ليل" لدى عدد من الشعراء الذين تأثروا بها فقدموا مجموعة من الدواوين الشعرية القوية المؤثرة التي تدور حول وصف الطبيعة وبعض النماذج البشرية وامتازت أساليبهم بالصورة المجسمة المحبوكة بعناية ظاهرة وبالإيقاع الموسيقي الذي يشارك في تأدية ي وبالألفاظ المنتقاة والعبارة المهذبة واستعان بعضهم بالأسطورة للتعبير عن القضايا والمشاعر التي لم يستطيعوا أن يعبروا عنها مباشرة وفي الوقت نفسه لم يستطيعوا كبتها وتجاهلها كما جاء في مبادئهم المعلنة فحملوا شخصيات هذه الأساطير وأحداثها ما يرون قوله .(٢)

أما جمهور البرناسية فهم طبقة الصفوة من المثقفين وأشباههم الذين لديهم نزعة إلى التحرر والتفلت من المبادئ والقيم والأخلاق .

وكان من اللافت أن يستخدم شعارهم الفن للفن للدفاع عن الأعمال الأدبية التي تتصادم مع عقائد المجتمع وتقاليده وقيمة الخلقية .(٣)

وللبرناسية جمهور كبير في بعض البلاد العربية من الأدباء والمثقفين الذين يؤمنون بشعار الفن للفن وهؤلاء في الغالب من أنصار الغرب واتجاهاته الإباحية والإلحادية وللأسف فلديهم

---

(١) نفسه ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

(٢) انظر : عبدالباسط بدر ، مذاهب الأدب العربي ، ص ٦٦

(٣) السابق ٦٧ ، ومحمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ص ٣٧٤ ، ويلاحظ أن أكثر البرناسيين كانوا من الرومانتيكيين في بادي أمرهم ، ويؤيدون التقدم الاجتماعي وسرعان ما ضاقوا بسواد الشعب ، وترفعوا عنهم في فنهم ، يتوجهوا إلى الصفوة

إمكانات ووسائط جيدة لمخاطبة الجمهور العادي ويجدون تشجيعاً من بعض السلطات في الوقت الذي لا يتاح لغيرهم فرصة التعبير عن أفكاره وأرائه .

ومن حسن الحظ بعد فضل الله أن أدب هؤلاء أو ما يكتبونه سرعان ما ينطفيء بريقه وينسي أصحابه بعد وقت قليل مقابل استمرار الإنتاج الأدبي بغيرهم ممن يحملون فكرة إنسانية أو قيمة خلقية .

البرناسية في التصور الإسلامي

من الواضح أن البرناسية رد فعل للمغالاة في بعض الجوانب عند الرومانتيكيين رد الفعل هذا أتسم أيضاً بالمغالاة والتطرف في المقابل ويمكن أن نجمل التصور الإسلامي لأهم مبادئ البرناسية في النقاط التالية .

١ – إن الجمال ليس غاية في ذاته فمن المهم أن تكون الوسيلة إليه جميلة لا أحد يكره الجمال ولكن أن يتحول إلى ما يشبه العقيدة فهو أمر بعيد عن القد الصحيح للحياة والغاية منها. وإذا كانت الحياة نفسها وسيلة وطريقاً للآخرة وليست غاية في حد ذاتها فكيف يمكن أن نجعل الجمال في حد ذاته غاية لا نهائية كما يقول "دي ليل".

لا شك أن مفهوم الجمال عند البرناسيين قاصر لا يستوعب مجالات الأدب وسائله ، حيث يهتم بالصياغة والمفردات والشكل والإيقاع دون أن يتوقف ويعطي اهتماماً للمضمون أو المعاني أو الدلالة وهذه العناصر لها أهميتها في إحساسنا بالجمال وتذوقه إذا تآلفت مع العناصر الآخري .

إن الأدب ليس زخرفة أو نقوشاً صماء أو وصفاً مجرداً والمعاني التي يحملها تعرض غالباً مشاعر ترتبط بقيم وأفكار وعقائد ومفاهيم وتصورات لا يمكن تجاهلها أو الإغضاء عنها وإذا كانت بعض قصائد الوصف مجردة من هذه المشاعر فليس الأدب كله قصائد وصف.[1]

---

(١) عبدالباسط بدر ، مذاهب الأدب العربي ، ص ٧٠ – ٧٣

٢ – يسعي البرناسيون إلى الفصل بين الأدب والمنفعة لصالح ما يتحدثون عنه من غاية جمالية والأدب على مر التاريخ كان ذا غاية نفعية إلى جانب الغاية الجمالية أو المتعة ومنذ الإغريق حتي يومنا هذا فإن معظم النصوص الأدبية تهدف إلى تحقيق الغاية النفعية إلى جانب الغاية الجمالية وقد كان الأدب في كل العصور والأزمان سلاح المعارك القومية الوطنية ومفجر الثورات والإنقلابات وداعية التجديد والتغيرات .

لا أحد يستطيع أن يعزل الأدب عن الجمهور العريض ومهما زعمت البرناسية أن روادها من الصفوة والمثقفين فالأدب يسعي إلى الجماهير المنتشرة في كل مكان وحكم على نفسه بالموت أو البوار وهذا ما حدث بالنسبة للبرناسية فقد ظلت وفي أفق ضيق حتي تآكلت بصورة شبه تامة وقامت على أطلالها مذاهب أخري إن الإسلام لا يرضي للأدب أن يكون بلا وظيفة اجتماعية والغاية الجمالية في حد ذاتها لا تنهض بهذه الوظيفة لأن القيم الإسلامية تحتاج إلى وعاء جمالي وهو ما يجعل الأدب والجمال صنواناً .

٣ – إن الغاية الجمالية دفعت البرناسيين إلى استبعاد المعيار الخلقي في الأدب لا يعنيها أن يكون المضمون ذا قيمة خلقية أو غير ذي قيمة ولعل هذا هو سر ترحيب التحرريين والمتفلتين بالنظرية البرناسية لأنها تعفيهم من أي التزام خلقي وهو قد يحول الأدب مجرد كتابة إباحية تدعو إلى الرذيلة ، ليس في مجال الجنس وحده ولكن في المجالات الأخري كافة مما يهيئ للإنحراف والجريمة والعنف والخلل الاجتماعي .

يقول عبد الباسط بدر :

وإذا كنا نسلم بأن الأدب ليس أداة دعاية للأخلاق ولا عبداً لها فإننا لا نقبل أن يكون خصماً معانداً لها ، ولا أداة للإنحراف والإلحاد وتهديم الأخلاق . (١)

لقد كان "أرسطو" يدعو إلى استبعاد الأخلاق من الشعر وإلى نفي منفعته ولكن هذه الدعوة لم تلق استجابة تذكر على امتداد التاريخ بدليل أن الأدب الإغريقي نفسه في عهد أرسطو وما بعده كان يحمل معني خلقياً في معظم روائعه الملحمية والمسرحية والشعرية .

---

(١) مذاهب الأدب الغربي ، ص ٦٩

ولا شك أن الإسلام يرفض كل عمل يتنافي مع الخلق الإسلامي أو يحض على هدمه أو الزراية به ، والأخلاق الحميدة في المفهوم الإسلامي مجال مفاخرة ، وميدان تنافس وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول – صلي الله عليه وسلم – كثيرة في هذا السياق فقد سئلت عائشة – رضي الله عنها – عن أخلاق الرسول – صلي الله عليه وسلم – فقالت : (كان خلقه القرآن) ، ويقول – صلي الله عليه وسلم – عن نفسه : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وكان يقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) . (١)

٤ – يلاحظ أن رواد المذهب البرناسي حاولوا أن يجعلوا الأدب أو الفن قائماً على أساس علمي تجريبي مما يتناقض مع طبيعة الفن الذي يعبر عن نفوس بشرية مليئة بالعواطف والمشاعر والأحاسيس وكلها يصعب إخضاعها للعلم أو التجربة وعزلها عن الخير والشر ولكن البرناسيين حاولوا أن يجعلوا الفن كأنه علم يسبق العلم ويفضله والأولى في هذا السياق أن يكون للعلم مجاله وللفن مجاله فالعلم يخدم الإنسانية باكتشافاته وإنجازاته التي تصب في إفادة البشر والتخفيف عنهم والفن يعبر عن النفس البشرية ويوجهها الوجهة المفيدة التي تعصمها من الزلل والانحراف .

٥ – تبقي الإشارة إلى موضوع العقيدة الدينية وواضح أن البرناسية لا تعبأ بها وإذا كانت تعزل الأديب عن الأخلاق فمن باب أولى أن تعزله عن العقيدة وهذا العزل قد يتحول إلى صدام مع العقيدة ذاتها . وإذا عرفنا أن أحد رواد البرناسية وهو الكونت " دي ليل " قد تحول من المسيحية إلى البوذية نتيجة لتأثره بالمبادئ التي قام عليها المذهب البرناسي فإنه يمكن القول أن البرناسية مناقضة للتصور الإسلامي تماماً لقد كان "دي ليل" يتلهف في أشعاره على الموت أشد التلف ، ويغبط الموتي الذين سعدوا بالفناء ويسأل الموت أن يتقبله بقبول حسن وأن يضمه إلى صدره المرصع بالنجوم وهذا ينافي منهج الإسلام في الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والثواب والعقاب والعمل للدنيا كأنه يعيش أبداً وللآخرة كأنه يموت غداً.(٢)

---

(١) أنظر السور القرانية الأتية : التوبة ٧١ : المائدة ٢ فصلت ٣٥ – ٣٦

(٢) أنظر : عبدالرحمن رأفت الباشا نحو مذهب إسلامي في الأدب النقد ص ٦٥

الرمزية :

الرمز :

للرمز معني عام وأخر خاص فالعام يتمثل في الدلالة على قيمة عامة لدي الدول والمؤسسات مثل الأعلام التي تشير إلى كل دولة أو كل محافظة ويعبر العلم عن ميزة أو شهرة تتميز بها الدولة أو المحافظة وكذلك المؤسسات العلمية والتجارية والثقافية والصناعية والزراعية تتخذ رمزاً يشير إليها ويميزها عن غيرها أو يصير علامة تجارية أو صناعية أو نحوها تميز المنتج وتدل عليه.

أما المعني الخاص فإنه يمثل دلالة على رموز رياضية أو فيزيائية أو كيميائية يستخدمها العلماء العاملون في هذه المجالات وطلابهم للدلالة على كميات أو عناصر من خلال المسائل أو المعادلات أو التجارب التي يقومون بإجراءات حلها أو تنفيذها .

ومن ناحية أخري فإن الأدباء والشعراء يستخدمون في أشعارهم وكتاباتهم رموزاً للدلالة على قيم معينة أو الإشارة إلى شخوص أو أماكن أو سلوكيات ونتائج تعبر عما في نفوسهم دون أن يصرحوا بها في كتاباتهم ولكنها تفهم من خلال السياق والتأويل والرمز موجود في الأدب العربي منذ زمن بعيد في النثر والشعر على السواء ولعل كتاب "كليلة ودمنة" من أبرز النماذج الدالة على الرمز في الأدب القديم ، وفي شعرنا ونثرنا الحديث صور لا حصر لها من الرموز المتنوعة والمختلفة لا مجال للحديث عنها الآن .

وحين نشير إلى الرمز في أدبنا العربي فلا يعني أننا نقصد الرمزية بمفهومها الأوربي لأن الرمزية المذهب الأدبي الأوربي لها مفهوم أخر .

والرمزية أو المذهب الرمزي نشأ في أوربا في القرن التاسع عشر الميلادي وأستقر عام ١٨٨٠ م تقريباً على يد جماعة من الشعراء الفرنسيين في مقدمتهم "بودلير"و "رامبو مالارميه" ونلاحظ أن الرمزية ركزت على الشعر أو كان الشعر ميدانها الأساسي الذي جسد مبادئها وتصوراتها .

ويعد المذهب الرمزي أهم مذهب في الشعر الغنائي بعد الرومانتيكية وقد ترك آثاراً عميقة في الشعر العالمي حتي الآن .

ومعني الرمز عند الرمزية هو الإيحاء أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوي اللغة على أدائها في دلالتها المباشرة . (١)

والمذهب الرمزي رد فعل للبرناسية التي تحرص على تجسيم الصور الشعرية في محاولة الربط الشعر مع النحت والرسم بينما الرمزيون يريدون الغوص بشعرهم في أعماق النفس وتوثيق الصلة بين الشعر والموسيقي التي هي أقوي وسائل الإيحاء وأقرب إلى الدلالة اللغوية النفسية في سيولة أنغامها لتوليد الإيحاء النفسي وقد تأثروا بالموسيقي الألماني "فاجنر " لتوليد الإدراك الرمزي مما هو جوهري في موسيقي الشعر . (٢)

يمكن إجمال أهم خصائص المذهب الرمزي فيما يلي :

١ – يقوم الشعر الرمزي على إلباس الأفكار المجردة أثواباً هي الوسيلة الوحيدة القادرة على تشكيل وجدان القارئ مما يعني أن جميع الظواهر المادية في الكون ليست غير تعبير مجسد عن الأفكار المجردة التي لم نصل إلى كنهها بعد . (٣)

٢ – من أهم الوسائل الفنية التي يعتمد عليها الرمزيون لإلباس الأفكار المجردة " تراسل الحواس فتعطي المسموعات ألواناً وتصير المشمومات أنغاماً وتصبح المرئيات عاطرة وذلك لتوليد إحساسات تغني بها اللغة الشعرية تستطيع اللغة الوضعية التعبير عنها ورائدهم في ذلك "بودلير" في قصيدة عنوانها " تراسل " وفيها يقول :

الطبيعة معبد ذو عمد حية وتنطق هذه العمد أحياناً ولكنها لا تفصح بحواس المرء منها في غابات من رموز تلحظه بنظرات أليفة وتتجاوب الروائح بالألوان والألوان كأنها أصداء طويلة مختلفة تتردد من بعيد لتؤلف وحدة المعني مظلمة الأرجاء رحيبة كالليل وكالضوء .(٤)

٣ – يبغض الرمزيون اللهجة الخطابية بوسائلها التقليدية من إحالة وتهويل لأنها تنافي التعمق في تصوير المعاني النفسية الخبيئة في حنايا النفس ولهذا يحرصون على الإيحاء والوصول إليه

---

(١) محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ص ٣٨٢

(٢) السابق ص ٣٨٣

(٣) عبدالرحمن رأفت الباشا ، نحو مذهب إسلامي في الأدب النقد ص ٦٨ وما بعدها

(٤) محمد غنيمي هلال الأدب المقارن، ص ٣٨٢ وما بعدها

بالوسائل الممكنة مثل (تقريب الصفات المتباعدة، والسكون المضمر ، الضوء الباكي ، الأسماك الفضية ، القمر الشرس ، الشمس المرة المذاق) والألفاظ المشعة الموحية للتعبير عن أجواء نفسية رحيبة فلفظ الغروب مثلاً يوحي في موقعه بمصرع الشمس الدامي والألوان الغاربة الهاربة والشعور بأن شيئاً يزول والإحساس بالانقباض وما إليها .[1]

٤ – يعد أصحاب المذهب الرمزي أول من دعا إلى تحرير الشعر من الأوزان الموروثة تساير الموسيقي فيه دفقات الشعور لقد دعوا إلى الشعر المطلق أي الذي بلا قافية والشعر الحر أو المتحرر من الوزن والقافية معاً .

٥ – يلعب عالم العقائد والغيب دوراً كبيراً في الصور الرمزية وفيها يختلط الشعور بالا شعور وعالم الأشباح والأرواح بعالم الناس للإيحاء بمعالم نفسية دقيقة متأرجحة بين الإبانة والخفاء ويلقي عليها الشاعر أضواءً وتنفذ جوانب منها ولا تستوعبها .[2]

٦ – ترفض الرمزية النزعة العلمية والروح الواقعية اللتين تغلغلتا في الأدب لتهرب من الواقع وتتعالى عليه وتنأى بنفسها عن المشكلات السياسية والإجتماعية لتبحث عن عالم مثالي مجهول يسد فراغ الرمزيين الروحي ويعوضهم عن غياب العقيدة ويلاحظ أن جمهور الرمزيين هو صفوة المثقفين والمجتمع مثلهم في ذلك مثل البرناسيين فهم لا يعبأون بجماهير الشعب العريضة ولا فئاته التي تمثل الأغلبية الساحقة .

- نموذج للشعر الرمزي :–

من قصيدة "المتسمعون" للشاعر "ولتردي لامبر" ترجمها محمد غنيمي هلال عن الانجليزية :

(ألا من إنسان هنا ؟ هكذا قال ابن السبيل وهو يطرق الباب المضاء بالقمر وحصانه في الصمت يرعي العشب من أرض الغابة الغزيرة الأزهار وانطلق طائر من البرج الصغير فوق رأس ابن السبيل ودق الباب مرة ثانية وهو يقول ألا من انسان هنا ؟ لكن لم يهبط إليه أحد ولم يطل عليه رأس من حافة الشباك المورقة لينظر في عينيه الرماديتين في حين ظل هو جامداً قلقاً ولكن كوكبة من الأشباح

---

(١) السابق

(٢) نفسه

المتسمعة هي وحدها التي تسكن آنذاك المنزل المهجور كانت تتسمع في أضواء القمر الساكنة في الصوت الوحيد الآتي إليها من عالم الناس محتشدة في الظلام بغشاء بضوء القمر الخافت يتسلل إلى سلم الردهة الخالية ..... (١)

وتعد هذه العقيدة من أقرب القصائد الرمزية إلى الفهم وتختلف عن كثير منها تتصف بالغموض والضبابية .

الرمزية والتصور الإسلامي :-

مع أن الرمزية تبدو في مجملها بحثاً عن سياق أدبي يختلف عن السياقات التي كانت تزدهر إبان ظهورها الواقعية البرناسية فإنها تعبر من ناحية أخرى عن فلسفة هروبية نتجت عن واقع شرس سيطرت فيه الآلة ولم تعد الكنسية ملجأ أو ملاذاً بعد أن تحكمت في الناس ومارست أبشع أنواع القهر الروحي النفسي باسم الله وتحالفت مع الإقطاع وطبقة النبلاء ضد عامة الشعب .

ويمكن إجمال الرؤية الإسلامية للمذهب الرمزي في النقاط التالية .

١ – تخلت الرمزية عن عامة الناس واقتصر خطابها الأدبي على صفوة المثقفين والمجتمع فضلاً عن هروبها من معالجة قضايا المجتمع السياسية والاقتصادية والإنسانية وهو ما حصرها في دائرة ضيقة وهو ما لا يتفق مع منهج الأدب الإسلامي الذي يجعل المجتمع بكل فئاته وطبقاته وأطيافه محل اهتمامه ومجال حركته وموضع إبداعه.

إن الإسلام يجعل المسلم في خدمة المسلمين جميعاً لذا فالأديب المسلم مطالب بتبني هموم المسلمين وآمالهم بل يدفعه التصور الإسلامي إلى الاهتمام بالبشر خارج الدائرة الإسلامية ليقف إلى جانب المظلومين والمضطهدين والمحتاجين بحكم الأخوة الإنسانية .

٢ – لا شك إن إغراق الرمزية في عالم الباطن وتجاهل عالم الظاهر يزيد من محدودية مجال الأدب الرمزي ، والاهتمام بعالم الباطن غير الواعي في الإنسان يقلل من قيمة العقل الواعي ودوره في بناء المجتمع والوصول إلى الحقائق وهو ما يرفضه الإسلام الذي أعلى من شأن العقل ودوره في

---

(١) محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ص ٣٦٨ وما بعدها ويلاحظ أن نجاح الرمزية في المسرحية والقصة كان محدوداً ويعد "ماترلنك" البلجيكي أهم من كتبوا الرمزية و "كافطا" التشيكي أهم من كتب القصة بالألمانية .

حماية الإنسان من الشر وتوجيهه إلى الخير وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تشيد بدور العقل وأهميته في معرفة الله والإيمان بالخالق وإدراك النعم الإلهية .

قال تعالى : (من آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون). (١)

٣ – وإذا كانت الرمزية قد انطلقت من أساس فلسفي صادر عن فراغ روحي إفلاسي عقدي وضياع في عالم مادي شرس فإن المسلم ينطلق من عقيدة تشبع روحه وتملأ نفسه وتغذي وجدانه ، ولهذا فالأديب المسلم يكون في مأمن من التعلق بالعالم الجمالي الذي جعله الرمزيون عقيدة لهم ومنحوه الولاء بدلاً من الله .(٢)

٤ – إن اللغة التي يعتمد عليها الرمزيون ويدعون إليها تدور في عالم الغموض والضبابية وغالباً ما تجعل المعنى مستغلقاً في الوقت الذي يملك فيه الأديب المسلم أرقى نموذج لغوي معجز وهو القرآن الكريم بالإضافة إلى الحديث الشريف والتراث العربي الباهر شعراً ونثراً وفيه أرفع النماذج التعبيرية التي عرفتها البشرية (٣)ومع ذلك فلا بأس للأديب المسلم أن يستفيد بالأدوات التعبيرية الرمزية – تراسل الحواس مثلاً – إذا وجد أنها تثري تعبيره وترقي به دون أن تؤثر في تصوره أو رؤيته .

٥ – هناك بعض المحذورات في الرمزية ترتبط بالعقيدة المسيحية حيث يستخدم بعضهم رموزاً وتصورات لا تتفق مع تصور الإسلام ورؤيته مثل : الصلب – الفداء – الخطيئة – القربان ، فضلاً عن استخدام بعض الأساطير الوثنية التي تتناقض مع عقيدة التوحيد والإخلاص لله .

---

(١) سورة الروم : ص ٢٤ وأنظر عبدالرحمن رأفت الباشا نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص ٧٢

(٢) عبد الباسط بدر ، مذاهب الأدب الغربي ، ص ٨١

(٣) أنظر : عبدالرحمن رأفت الباشا . نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص ٧٤

الوجودية

"أنا أفكر إذا أنا موجود" :-

هذه عبارة شهيرة للفيلسوف الفرنسي "كانت" وتحمل جوهر المذهب الوجودي الذي أستقر في أوربا في القرن العشرين .

ويعد الكاتب الدنماركي "كير كجارد" (١٨١٣-١٨٥٥) أول من وضع بذور هذا المذهب ، ثم طوّره وعمّقه الفيلسوفان الألمانيان "مارتن هيدجر" من مواليد ١٨٨٩ م و"كارل ياسبرز" من مواليد ١٨٨٣ م .

وقد استطاع الفلاسفة الفرنسيون أن يقدموا لنا نوعين من الوجودية :-

١ - الوجودية المسيحية التي تنسب إلى "جبريل مارسيل" مولود عام ١٨٨٩ م

٢ - الوجودية الإلحادية التي أسسها "جان بول سارتر" مولود عام ١٩٥٠ م وفكرة الوجودية المسيحية تعتمد على فكرة الخطيئة في النصرانية وهي أن الإنسان يتحمل خطيئة أبيه آدم وأن شعوره بالإثم يدفعه إلى تحقيق وجوده أمام الله بالعمل النابع من إرادته الحرة فهو يتولى خلق أعماله وتحديد صفاته وماهيته باختياره الحر ودون أن يفرض عليه شيء من خارجه .[١]

أما الوجودية الإلحادية فهي التي شاعت في فرنسا وخارجها على يد "سارتر" و"ألبير كامي" وغيرهما وترى أن الوجود الإنساني هو الحقيقة الوحيدة في الحياة ولا يوجد شيء سابق عليها ولا لاحق لها ومن ثم فهي لا تؤمن بوجود إله ولا ماهية ولا قيم ولا إخلاق موروثة لها صفة اليقين .

وتعتقد الوجودية أن الفرد يستطيع الانطلاق في الحياة دون قيود فالقيم والعقائد والتقاليد تعد تراثاً عتيقاً بالياً يجب التخلص منه ، والإنسان يصنع بإرادته الحرة ما يشاء فتحمل ذاته في ما كان يسميه القدماء الماهية .[٢]

---

(١) انظر : عبدالباسط بدر : مذاهب الأدب الغربي ص ٨٨ وما بعدها .

(٢) السابق ص ٨٩

وقد أجمع الوجوديون على مخالفة من قبلهم من الفلاسفة في أن فلسفتهم ليست تجريدية بل هي دراسة ظواهر الوجود المتحقق في الموجودات ولذا لا يشغل الوجودي ما في الوجود المجرد عند تأمل الموجود بل الوجود الذي يحياه الإنسان .

يفرق الوجوديون بين الوجود والكينونة فالأحجار كائنة والإنسان موجـــود ،والأحجـــار تظهر في نطاق العملية الذهنية التي بها يدركها الإنسان أما وجود الإنسان فيتجاوز الذهن إلى إدراك ذات نفسه إدراكاً يستلزم الصيرورة الدائمة التي تستلزم الاختيار.(١)

ووفقاً لهذا الاختيار فقد بات على الإنسان في المفهوم الوجودي أن يتحمل مسئولية إجبار نفسه على الالتزام ، لقد تخلي الإنسان الوجودي عن العقيدة الدينية والقيم الموروثـــة والتقاليـــد الاجتماعية السائدة لذا صار عليه أن يبحث عن هدف وغاية يتمثلان لتحقيق الوجود ذاته ولا يتم ذلك إلا بممارسة الحياة الفردية بحرية مطلقة فتضامن مع أفراد البشر لأن حياته مرتبطة بحياتهم مؤثرة فيها وقد نادي "سارتر" بثلاث دعامات تقوم عليها الوجودية هي :-

١ – الحرية ٢ – المسئولية ٣ – الالتزام

ونتج عن هذه الدعامات أو العناصر ثلاث مشكلات أو مشاعر هي :-

١ – القلق ٢ – الهجران ٣ – اليأس (٢)

وينشأ القلق لعدم الإيمان بالله أو لعدم وجود إله يعتمد عليه الإنسان ويرجع إليه فضلاً عن الإنقطاع عن القيم والأخلاق والتي تواضع عليها الأجيال السابقة .

أما الهجران فسببه الإحساس بالوحدة والاعتماد على الذات وحدها وتحمل المـــسئوليات الكبيرة واليأس نتيجة طبيعية للقلق والهجران .

وقد حاول "سارتر" أن يقلل من خطر اليأس على الوجوديين فوجههم إلى العمل وحضهم عليه ، حتي لو لم يكن له غاية ففي العمل نفسه لذة تشبع العامل . (٣)

---

(١) محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ص ٣٨٩

(٢) عبد الرحمن رأفت الباشا ، نحو مذهب اسلامي في الأدب والنقد ، ص ٧٦

(٣) عبد الرحمن رأفت الباشا : نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص٧٧ .

ولا شك أن هذه المشكلات أو المشاعر الثلاثة قد عززت من وضع ما يسمي الإغتراب الوجودي الذي ظهر جلياً في الأعمال الأدبية للوجوديين خاصة "كامي" و"سارتر" وسوف نلاحظ أن الوجودية اهتمت بمضمون الأعمال الأدبية التي ينبغي أن تحقق الإلتزام أكثر من اهتمامها بالشكل وقد أستثنت الوجودية الشعر من الإلتزام على أساس أنها بنية إيقاعية مجردة مثل الموسيقي لا تصلح بطبيعتها من وجهة نظرهم لحمل الأفكار ولذا كانت المسرحية والقصة المجال الحقيقي لفكرة الإلتزام وتجسيد المذهب الوجودي في الأدب. (١)

وقد عبر "سارتر" و" كامي" عن فكرة الالتزام من خلال المبادئ الوجودية في مجموعة من الأعمال المسرحية والقصصية منها الذباب ، جلسة سرية ، رجال بلا ظلال المومس الفاضلة لسارتر والغريب والطاعون لكامي .

وقد ترجمت معظم أعمال الأدباء الوجوديين الفرنسيين إلى العربية في عقد الستينيات وعقد السبعينات من القرن الماضي ونشرت في بيروت والقاهرة .

الوجودية والتصور الإسلامي :

فيما رأينا فإن الوجودية ترفض الإيمان بالله ووصلت إلى القول بأن الآلهة ليس خرافة بل هو خرافة ضارة ثم أنها رفضت القيم والأخلاق والتقاليد الموروثة لدى الإنسان مركز الكون وهو الذي يحدد ما يريده ويتحمل مسئوليته من واقع الإلتزام الذاتي .

فالوجودية بهذا الشكل تتنافي مع الإسلام جملة وتفصيلاً حتي لو كانت وجودية يهودية أو نصرانية أو إلحادية لأنها تقوم على أساس وثني نتيجة للتحريف الذي أصابها في الغرب فضلاً عن كونها تحمِّل الإنسان أوزاراً وأثاماً وهو ما يسمى الخطيئة الغير مسئول عنها وفقاً لمنهج الإسلام (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .(٢)

---

(١) محمد غنيمي هلال الأدب المقارن ص ٣٩١ ، وعبدالباسط بدر ، مذاهب الأدب الغربي ، ص ٩٠ وما بعدها، ويلاحظ أن فكرة الالتزام قد وجدت صدي كبيراً في فترة الستينيات من القرن العشرين في الأدب العربي ، ودار حولها نقاش كبير امتد لفترة طويلة ، بوصف الالتزام تعبيراً عن موقف ، ولذا سمي الأدب الوجودي " أدب اللالتزام وأدب المواقف حيث يحدد الكاتب موقفه من قضايا مجتمعه وعصره تحديداً كاملاً .

(٢) سورة فاطر : ١٨ وأنظر أية أخري في سورة النجم ٣٨

ويمكن أن نجمل موقف الوجودية في التصور الإسلامي من خلال النقاط التالية .

١ – يقوم الإسلام على عقيدة التوحيد وقوامها الإيمان بإله واحد له ما في السموات وما في الأرض ويملك أمر الكون وما فيه وإليه يرجع الأمر كله ويتحمل المخلوق مسئوليته عن أفعاله وحده ولا يحاسب عما يفعله غيره .

والوجودية على خلاف ذلك كله فهي تدعو صراحة إلى الإلحاد أو الإيمان بالخطيئة وتحمل الأجيال مسئولية الإثم الذي حمل آدم عليه السلام مع أن الله قد غفر له وتاب عليه في المفهوم الاسلامي [1]

وعلى هذا فلا يمكن للأدب الاسلامي أن يتقبل مثل هذه الفلسفة لأنها مرفوضة شكلاً وموضوعاً .

٢ – تري الوجودية أن الإنسان هو الذي يضع القيم ويلتزم بها دون أن تكون نابعة من دين أو خلق موروث أو سلوك تواضع عليه المجتمع مما يعني أن الإنسان وجودي له الحق في سلوك ما يراه بعيداً عن أوامر الدين أو نواهيه أو تقاليد عامة وعاداتها وهو ما يسمح له بفعل كل شيء واستباحة كل شيء مما يعني إنحلال المجتمع وتفسخه تحت وطأة السلوك الإنحلالي الذي تقوده الغريزة والشهوة ولا شك أن التصور الإسلامي يرفض قيم الإنحلال والإباحية وسلوكيات الشهوة التي لا تلتزم بدين ولا خلق ولا تقاليد لأنه يريد إقامة مجتمع نظيف متماسك يقوم على التوازن ، وإشباع الغرائز وفقاً لمنهج الطهارة والعفة والشرف .

٣ – لا شك أن قضايا الحرية والمسئولية والالتزام التي يؤسس عليها الوجوديون مذهبهم تنطلق من مرجعية وضعية محدودة هي الإنسان وسبقت الإشارة إلى أن هذه القضايا تؤسس لمثلاث مشكلات كبري هي القلق والهجران واليأس وهي مشكلات خطيرة مدمرة للإنسان وكيانه ووجوده الفعال .

---

(١) قال تعالي في سورة طه " فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلي ( ) فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصي أدم ربه فغوي ( ) ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي " الآيات من ١٢٠ – ١٢٢

إن الحرية في الإسلام ترتبط بالخالق سبحانه ، وتنطلق وفق مقتضيات التشريع بعيداً عن الحرية التي تصل إلى الفوضى والإلحاد.

والمسئولية في الإسلام إيجابية لأنها تعني أن يكون الإنسان المسلم مسئولاً أمام ربه ويحركه ضميره الإسلامي الذي لا يخشي في الله لومة لائم ، عكس المسئولية الوجودية التي ترتبط بما يفرضه العقل البشري المحدود والقاصر .

والالتزام في الإسلام يختلف في مضمونه عن الإلتزام في الوجودية فهو في الإسلام يصدر عن الايمان والطاعة ولذا فالأديب المسلم يدعو إلى ربه في أدبه ويفرض قيم الإسلام ومفاهيمه في كتاباته التزاماً ذاتياً يفرضه الضمير الإسلامي أما الالتزام في الوجودية فهو اقتناع بمبادئها التي تكرس المادية والذاتية فضلاً عن الاغتراب والتشاؤم . (١)

٤ – تضع الوجودية للإنسان فترة وجودية محدودة هي الدنيا فقط منذ مولده حتي مماته لأنها لا تؤمن بالبعث ولا الآخرة وهذا يدفع الإنسان الوجودي إلى التعامل مع الحياة بمنطلق البحث عن اللذة أو المتعة يحصّل منها ما يستطيع قبل أن ينتهي أجله مما يوقعه في شر الإفراط والانهيار وربما الإدمان أما المسلم فيعلم أن سينتقل إلى الآخرة عبر الدنيا التي هي مجرد ممر إلى حياة الخلود حيث النعيم الخالد – بإذن الله – أما الدنيا فهي دار الفناء " وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " (٢)

وبصفة عام فإن الوجودية قرين للحياة المادية البيولوجية المفعمة باليأس والقلق أما الإسلام فهو الحياة المادية والروحية جميعاً وهو الأمل والطمأنينة والثقة بالله .

السريالية

في عام ١٩١٧ ابتداع الشاعر الفرنسي "أبولينير" كلمة السريالية وهي مكونة من مقطعين sur + realism وتعني ما فوق الواقع أو ما وراء الواقع وقد نشأت السريالية نتيجة لخيبة

---

(١) أنظر : عبدالباسط بدر ، مذاهب الأدب الغربي ص ٩٤ وما بعدها

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥ – وأنظر : عبدالرحمن رأفت الباشا ، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ص ٨١

الناس في النظام السائد قبل الحرب العالمية الأولى بما فيه من عقائد وأفكار وتصورات وعادات وتقاليد وكان ثورة عاكسة تماماً لما قبل الحرب ، حيث اندفع أصحابه في الدعوة على التحلل من الأخلاق والقيم والدين مع التوجه نحو إشباع الغرائز إشباعاً حراً لا يتقيد بدين ولا أعراف ولا أخلاق .

وتضم السريالية تيارين أساسيين أحدهما بلاغي والآخر تجريدي وكلاهما يتجاهل الأعراف الأخلاقية والتقاليد الجمالية وصولاً إلى واقعية مستقلة بذاتها .

مؤسس السريالية :

ويعد "أندريه برتيون" مؤسس السريالية بوصفها مذهباً أدبياً وفنياً وقد نشر بياناً شهيراً عام ١٤٢٤ م تضمن مفاهيم المذهب وإطاره العام ، ويمكن إجمال المفاهيم السريالية في النقاط التالية :

١- التعبير عن الأمور غير الواقعية التي تحدث في اللاوعي مثل : الأحلام والكوابيس والأخيلة وكل ما هو بعيد عن رقابة العقل .

٢ – ويتسم هذا التعبير في الغالب بالتشاؤم والسوداوية والموت والرعب والضجر وغيرها.

٣ – في المجال التشكيلي الرسم يعبر السرياليون عن الجنس تعبيراً مكشوفاً لا يراعي تقاليد المجتمع ولا مواصفاته الخلقية .

٤ – تهمل السريالية المعتقدات والأديان والأخلاق السائدة في المجتمع وتبدو غالباً في حالة عداء معها .

٥ – التركيز على الجانب السياسي والبحث عن برنامج وضعي ومادي محسوس يصلح لتطوير المفاهيم الاجتماعية .

لقد اقترب السرياليون من الحزب الشيوعي وحاولوا تطبيق المادية الجدلية الماركسية .

٦ – اعتمد السرياليون منهج الثورة لتغيير حياة الناس وتشكيل مجتمع ثوري بدلاً من المجتمع القائم ودخلت اللغة في مجالهم الثوري حيث ثاروا على اللغة التقليدية سعياً إلى خلق لغة جديدة .

٧ – كما اعتمدوا في التعبير الأدبي والفني على الغموض وجعلوه هدفاً ثابتاً لهم .

- رحلة السريالية التاريخية :

يمكن إيجاز هذه الرحلة التي انتهت بالإخفاق الذريع فيما يلي :-

١ – كانت أراء "فرويد" عالم النفس الشهير قاعدة انطلاق السرياليين فقد كان تحليله للنفس الإنسانية وحديثه عن اللاشعور والأحلام والكبت والدعوة إلى تحرير الغرائز الإنسانية والرغبات المكبوتة في النفس البشرية وإشباع الغرائز إشباعاً حراً حتى لا تصاب بالأمراض النفسية مصدراً لإلهام السرياليين بالمبادئ التي أقاموا عليها مذهبهم الأدبي والفني .

٢ – كما كانت "الدادائية" التي ولدت في زيورخ بسويسرا عام ١٩١٦ م وتنسب إلى شخص يدعي "دادا" أي الأب ملهماً للسرياليين والدادائية حركة فوضوية تكفر بالقيم السائدة والمعتقدات الدينية والتقاليد الاجتماعية وكان رائدها شخص يدعي "ترستار تزارا" الذي يوصف بالمروج للفوضوية الفنية والاجتماعية .

٣ – تأثرت السريالية بالفكر الماركسي الشيوعي وخاصة الصراع الطبقي أو المادية الجدلية ولذا دعت إلى الثورة والعنف .

٤ – في المجال التعبيري أكدوا على عدم الخضوع للمنطق أو التفكير السليم ومزجوا بين الأنواع الأدبية والفنية فمزجوا بين المسرحية والقصة كما مزجوا بين الصورة والتمثال ولم يحفلوا بوضع خاتمة للمسرحية أو القصة .

٥ – بعد ربع قرن من إعلان المذهب السريالي أخفق السرياليون إخفاقاً ذريعاً في إنشاء مسيحية جديدة تخلص الإنسان من عذاباته وآلامه الروحية وضياعه الإنساني ونتيجة لذلك تحول عدد من السرياليين بعد الحرب العالمية الثانية إلى الشيوعية والإلحاد وجن بعضهم وأدخل المصحات العقلية والنفسية وتحول البعض الآخر إلى العبثية في الأدب عن انعدام المعنى العام وراء السلوك الإنساني في العالم المعاصر .

٦ – انتقلت أفكار السريالية بعيد انهيارها إلى مذهب الحداثة الأدبي الفكري .

- أبرز أعلام السريالية :-

١ – "أندريه بريتون" (١٨٩٦ – ١٩٦٦) وهو عالم نفس وشاعر فرنسي وهو المؤسس للمذهب وصاحب البيان الشهير الذي أعلن عنه مولده .

٢ – "ثورنتون وايلدر" وهو كاتب مسرحي ألف مسرحية بعنوان " جلد الانسان بين الأسنان" سنة ١٩٤٢ م وهي مسرحية تجنح إلى الخيال والعنف الناتج عن اللاشعور عند شخصيات المسرحية .

٣ – "سليفادور دالي" ولد عام ١٩٠٤ م وهو رسام أسباني من أبرز دعاة السريالية وأضاف إليها أسلوبه الذي أسماه " النقد المبني على الهلوسة " ويؤكد أنه قرب إلى الجنون منه إلى الماشي نوماً والمعرفة عنده تقوم على التداعي والتأويل.

٤ – "وليم ساروديان" ، وهو مؤلف مسرحي وقصصي وتعد مسرحيته " قلبي في بلاد الأحلام " من نماذج المسرحيات السريالية .

السريالية في التصور الإسلامي :-

كما رأينا فإن السريالية نتيجة لأوضاع مأساوية سادت أوربا قبل الحرب العالمية وبعدها وهي تعبير مباشر عن الضياع الذي عاشه الإنسان الأوربي بعيداً عن عقيدة صالحة أو فلسفة واضحة تحقق له التوازن الداخلي وتحقق طموحاته الروحية كما حققت طموحاته المادية التي دفعته لخوض صراعات وحروب أودت بالملايين وخلفت كثيراً من الآلام والعذابات .

ومن اليسير بعد أن عرفنا مبادئ السريالية وإطارها العام أن ندرك موقف الإسلام منها وهو الرفض الكامل لها ويمكن أن نضع أهم النقاط في تفسير بعض مبادئها إسلامياً كما يلي :

١ – تتجاهل السريالية الدين والعقيدة والأخلاق ،والإسلام يقوم على الإيمان بالله الخالق والالتزام بطاعته وتنفيذ تشريعاته التي تحفظ كيان الفرد والمجتمع وتضعه على طريق العمل والإنتاج والإبداع .

٢ – الدعوة إلى الفوضى والثورة تبدو بغير مسألة بغير هدف، اللهم إلا التدمير والتخريب وهو ما يأباه أصحاب الفطرة الإنسانية السليمة فضلاً عن الإسلام فالفوضى مرفوضة من حيث

المبدأ لأنها لا توصل إلى خير ، والثورة ما لم تكن واضحة الأهداف والغايات ، لتصحيح أوضاع خاطئة أو رفع ظلم واقع فإنها تدمر أكثر مما تصحح وتخرب أكثر مما تبني .

٣ – إن الاعتماد على الأحلام والكوابيس والنظرة التشاؤمية وكراهية الحياة لا تقيم أدباً ناضجاً لأنها تعني هروباً من الواقع ومن قضاياه ومشكلاته التي تحتاج إلى جهد حقيقي وتضحيات حقيقية لمعالجتها وحلها وإذا كان السرياليون يهربون من الوقائع والتزاماته فإن الأديب المسلم يقتحم هذا الواقع لمعالجة قضاياه وحل مشكلاته وفقاً لمنظوره الإسلامي .

٤ – لا شك أن معالجة السرياليين للجنس بطريقة مكشوفة ودعواتهم لإشباع الغرائز إشباعاً حراً مما يتناقض مع قيم الإسلام ومنهجه فضلاً عن كونه يعود بالإنسان إلى حظيرة الحيوانية والبدائية الأولي .

إن الإسلام حريص على الأعراض والطهارة السلوكية والأخلاق الشريفة وهو ما لا تنهض به السريالية وأفكارها المتحررة .

٥ – إذا افتقد التعبير الأدبي والفني منطق العلاقات اللغوية والفنية فإنه يفقد قيمته التعبيرية والفكرية ، والسرياليون حريصون على كسر هذا المنطق الذي لا يعبأ بالعقل بل أنه يجذ الغموض وخلط الأفكار والمعاني مما يصعب معه فهم العمل الأدبي والفني ولعل هذا كان وراء الإنهيار السريع للسريالية حيث لم يعمر المذهب أكثر من ربع قرن ، انتهى بكثير من زعمائه وأفراده نهايات مؤسفة ، إن الأديب المسلم في تعبير وتفكيره من أحرص الناس على المنطق والعقل والرقي بصياغاته وأفكاره ليقدم أعمالاً أدبية جيدة تبقى طويلاً وتعيش للأجيال .

ومن المؤسف أن البعض في العالم العربي من الأدباء والفنانين (الرسامين) مازالوا يسعون إلى إعادة إنتاج السريالية وخاصة في القصة والرواية بعد انهيارها بما يزيد عن النصف قرن واعتقدوا أنها محاولات يائسة للتغطية على قصور أدبي وفني واضحين ، وختاماً لا يصح إلا الصحيح ولا يبقي إلا النافع " أما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال" .[1]

---

(١) سورة الرعد : ١٧

الخاتمة والنتائج

وبعد التطواف حول المذاهب الأدبية الغربية المعاصرة والتصور الإسلامي لها وهل هذه المذاهب كانت تتأتى انعكاساً للأفكار والتصورات والمعتقدات التي يؤمن بها أصحابها ومن خلالها يبثون أفكارهم وقد يختارون وعاءً فنياً يبثون فيه قضاياهم ومشكلاتهم وخواطرهم أو يخترعون أوعيتهم الخاصة بهم التي تميزهم عن غيرهم وقد خلص البحث بالنتائج الآتية :-

١ – الحفاظ على التصور الإسلامي مسألة مهمة أساسية تسبق كل شيء .

٢ – الاستفادة من الإجتهادات الإنسانية مسألة مهمة يحثنا عليها الإسلام .

٣ – تمجيد العقل الذي يقوم على إعطاء الأولوية للمنطق والعقل والخضوع لأحكامه .

٤ – الكلاسيكية تحتفي بالصياغة والأساليب والزخرفة فيكون بذلك أدب المجتمع الناعم .

٥ – يتصرف الأدب الكلاسيكي بصفة عامة إلى معالجة النفس البشرية وتحليلها .

٦ – الرومانتكية تميل إلى الحزن والتشاؤم وهذا أمر يرفضه الإسلام .

٧ – الواقعية في الأدب تقوم على علاقة مفترضة بين الأديب والمجتمع والأدب مرآة عاكسة .

٨ – إخفاق الواقعية في توجهها المادي الصرف إخفاقاً ذريعاً نظراً لتبني الحزب الشيوعي .

٩ – يسعي البرناسيون للفصل بين الأدب والمنفعة لصالح ما يتحدثون عنه من غاية جمالية.

١٠ – في النهاية لا يصح إلا الصحيح ولا ينفع الناس إلا ما يبقي خالداً في حياتهم وبعد مماتهم .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل

المصادر والمراجع مرتبة حسب ورودها بالبحث

١- محمد غنيمي هلال – الأدب المقارن – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة ١٩٩٨ م.

٢- عبد الباسط بدر – مذاهب الأدب الغربيّ . رؤية إسلامية – شركة الشعاع للنشر ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

٣- عبد الرحمن رأفت الباشا – نحو مذهب إسلامي في الادب والنقد – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

٤- عبد المنعم تليمة – مقدمة في نظرية الادب – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠٠٠م .

٥- محمد غنيمي هلال – الرومانتيكية .

٦- محمد مندور – الأدب ومذاهبه – دار نهضة مصر – القاهرة . د . ت .

٧- إبراهيم عوض – مناهج النقد الأدبي الحديث – دار الفكر العربي – القاهرة – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .

٨- الموسوعة الفلسفية المختصرة – ترجمة عبد الرحمن بدوي – مكتبة الأنجلو – القاهرة – ١٩٦٤م .

٩- حلمي القاعود – النقد الأدبي الحديث .

١٠- أحمد بسام ساعي – الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد – دار المنار للنشر – جدة – السعودية – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٥ م .